

الكتاب الثاني

ا - مذهب التصنيع

ب - مذهب التصنع

oboiikandi.com

الفصل الأول

التصنيع والدواوين

١

التصنيع في الحياة العربية

لا نكاد نلمح في العصر العباسي حتى نحس أن الحياة العربية تغيرت إطارها تغيراً تاماً، بل لقد تهدم إطارها القديم وحل محله إطار جديد من الزخرف والتصنيع، فقد أخذ الناس يعيشون معيشة حضارية مترفة لا تتصل بالبادية ولا بالحياة العربية القديمة، إنما تتصل بالأناقة والترف والزينة. وقد كانت بغداد حاضرة الخلافة العباسية أهم مدينة في العالم العربي تعبر عن هذه الحياة الجديدة وما يتصل بها من زخرف وتصنيع إذ « كانت تسمى بحق مدينة القصور المشيدة بالمرمر، وكانت العمائر فيها مؤلفة من عدة طبقات، وكان تأثير الذوق الفارسي ظاهراً جلياً في زخرفها، وكانت تعلق على النوافذ والأبواب ستور مزركشة وحرائر مشجرة، أما الغرف فكانت مزدانة بالدواوين النفيسة والمناضد الثمينة والزهريات الخزفية والمرصعات والمذهبات، وكانت قصور الخليفة تتألق بالجواهر البراقة»^(١). وقد وصف بعض العباسيين داراً للوائق فقال: «إنها كانت مكسبة الحيطان بالوشى المنسوج بالذهب». ويقول: «إنه رآه يجلس على سرير مرصع بالجواهر، وعليه ثياب منسوجة بالذهب، وإلى جانبه فريدة تغنيه، وعليها مثل ثيابه»^(٢). ويروى عن الوزير أبي الحسن بن الفرات أنه أنفق على الدار التي كان ينزلها في وزارته الثانية ثلثمائة ألف دينار، وأنه أمر

(١) مختصر تاريخ العرب وتمدن الإسلام (٢) أغاني (طبع دار الكتب) ١١٦/٤ .
لسيد أمير على ترجمة رياض وأنت ص ٣٨٤.

بإصلاحها فبلغت النفقة خمسين ألف دينار^(١) . ولعل مما يدل على ترف العباسيين من بعض الوجوه ما يروى عن السيدة زبيدة زوج هرّون الرشيد من أن الثوب من الوشّى الذى كان يُتخذ لها كانت تبلغ نفقته خمسين ألف دينار^(٢) ، ويتصل بذلك ما يروى من أن أم المقتدر كان يشتري لها ثياب دَبِيقية لتصنع منها نعالها ، وكانت تطلّى بالمسك والعنبر المذاب وتجمد^(٣) ، فإذا كان المسك والعنبر يجمدان فى نعالها فما بالنّا بثيابها وطعامها وما كان يتخذ فيها !

والحق أن الحياة العباسية كانت تقوم على الترف والزينة وما يتصل بهما من تصنيع وزخرف، وقد ساعد الناس على ذلك ارتفاع مستوى المعيشة وما كانوا عليه من بذخ وثراء، وربما كان مما يصور هذا الجانب من بعض الوجوه ما يروى من أن بعض العباسيين ورث عن مولى لأبيه وابن عم له ماتا فى يوم واحد ما قيمته أربعون ألف دينار ، ويقولون إنه عمّر داراً بألف واشترى جوارى وآلات وفرشاً وثياباً بسبعة آلاف ، وأعطى لتاجر ألفين يتجر له فيهما ، وأودع فى بطن الأرض عشرة آلاف للشدائد ، وابتاع بالباقي ضيعة تُغلّ فى كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته^(٤) . ومن يرجع إلى ما كتبه العباسيون عن عصرهم يجد صوراً مستفيضة لترفهم وحضارتهم وتنميقهم، وإننا لنجد هذا التنميق فى كل مكان ، نجده فى قصورهم وحماماتهم إذ كانت تزين بالصور^(٥) كما نجده فى مساجدهم ، وحتى الأبواب كانوا يزخرفونها ، يقول آدم متر : إن أبواب الدور كانت تصنع من الخشب المحلّى بالنقوش ، وكانت تعلق البسط على الحيطان تتنافس بألوانها وزركتها^(٦) . ولعل من الطرف التى تعبر عن التصنيع فى هذا العصر تعبيراً دقيقاً ما يروى عن المقتدر بالله وقصوره وما كان فيها من بذخ إذ يقولون : إنه كان بقصره شجرة من الفضة زنتها خمسمائة

١٤٣/١ .

(١) كتاب الوزراء للهلال بن المحسن (طبع)

(٤) الفرج بعد الشدة للتونخى ١٧/٢ .

بيروت) ص ١٧٩ .

(٥) الحضارة الإسلامية لآدم ميتز (طبع لجنة

(٢) مروج الذهب للمسعودى (طبع دار

التأليف) ١٦٢/٢ .

الرجاء) ٢٤٤/٤ .

(٦) نفس المصدر ١٦٠/٢ .

(٣) نشوار المحاضرة (بتصحیح مرجليوث)

ألف درهم ، وكانت تقوم وسط بركة مدورة صافية المياه ، وكان لها ثمانية عشر غصناً ، على كل غصن الطيورُ والعصافيرُ من كل نوع مذهبة ومفضضة ، وكان بها ورقٌ مختلف الألوان ، وكانت تتمايل في أوقات لها فيتحرك هذا الورق وتصفّر الطيور وتهدر . ويبالغ المؤرخون فيما كان بقصور المقتدر من ستور الديباج المذهبة بالطرز الجليلة المصورة بالحمامات والقيلة والخيل والجمال والسباع ، ويقال إنه كان بأحد قصوره بركة رصاص حولها بستان بميادين فيه نخل ، قيل إن عدده أربعمائة نخلة وطول كل واحدة خمسة أذرع قد لبسَ جميعها ساجاً منقوشاً من أصلها إلى حد الظلمع بخلق من شبّه مذهبة^(١) .

ووقف ابن خلدون في مقدمته عند ترف العباسيين وأكبر من شأنه مستدلاً بما كان من إعراس المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل وما نثره أبوها من بنادق المسك وفيها الرقاع بأسماء الضياع والحواري التي وزعها على المدعوين ، ونثر أيضاً كثيراً من الدنانير والدراهم وزوافج المسك ، ثم يقول : إن المأمون أعطى بوران مهراً لها ليلة زفافها : ألف حصاة من الياقوت ، وبسط لها فُرُشاً كان الحصير منها منسوجاً بالذهب ، مكلاً بالدر والياقوت ، ويفيض ابن خلدون فيما اتخذ بهذا العرس من أطعمة^(٢) . وإن في كتاب البخلاء للجاحظ ما يدل على مدى ترف العباسيين في أطعمتهم وأوانيهم وتأنقهم في ذلك . وكما تأنقوا في طعامهم تأنقوا في ثيابهم وملابسهم ، فكانوا يلبسون الثياب المصبغة ، وخاصة في شرابهم^(٣) . وما من ريب في أن ما انتشر في هذا العصر من غناء وشراب ولهو كان له أثره في هذا الذوق المترف الذي يميل إلى أن يسرى التصنيع والزخرف في جميع جوانب الحياة من عمارة أو أطعمة أو فُرُش . وطبيعي أن يسرى هذا الذوق من حياة العباسيين الاجتماعية إلى حياتهم الأدبية لأنه تعبير عصرهم الذي عاشوا فيه ، وإن الإنسان ليخيل إليه كأن الناس فرغوا للتنميق

(١) انظر تاريخ الخليفة البغدادي (طبع)

ص ١٢١ .

(٢) انظر الفخرى في الآداب السلطانية (طبع

مصر) ١٠٠/١ .

المطبعة الرحمانية) ص ١٥٣ .

(٣) مقدمة ابن خلدون (طبع المطبعة البهية)

والتصنيع ، فهم يصنعون وينسجون في دورهم وفي ملابسهم وفي طعامهم وفي كل ما يتصل بهم .

٢

التصنيع ودواوين الخلافة العباسية

ونحن لا نخصي في تتبع أصحاب الدواوين في الخلافة العباسية حتى نجدهم منصرفين إلى العناية بكتاباتهم ، إذ كانت هذه العناية هي التي توفر لهم أسباب النجاح في حياتهم . ونحن نعرف ما كان من مشاركة البرامكة في الأدب والعلم ومعرفتهم بالبيان والبلاغة ، وسرى أنه كان لهم الأثر الأول في الاتجاه إلى التصنيع في الكتابة ، كان الفضل بن سهل يسمى ذا الرياستين لجمعه بين رياضة السيف ورياسة القلم ، وقد روى الرواة أن عمرو بن مسعدة وقع على رقعة رفعت إلى جعفر بن يحيى البرمكي ، فأعجب بها جعفر ، وضرب بيده على ظهره ، وقال له : أي وزير في جلدك^(١) . وقد وصل محمد بن عبد الملك الزيات إلى الوزارة عن طريق أدبه وبيانه وما يحققه فيه من تنميق وتصنيع . ويظهر أن جماعة كتاب الدواوين كانت تأخذ نفسها بثقافة واسعة ، وقد رأينا في غير هذا الموضع كيف كان عبد الحميد الكاتب ينصح الكتاب بمعرفة كتاب الله والفرائض والثقافة العربية من الشعر وأيام العرب وكذلك الثقافة الفارسية وما يتصل بتاريخ الفرس . ويظهر أن هذا كله لم يكن يكفي به كتاب الدواوين في العصر العباسي إذ كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة فلفنية واسعة كما كانوا يأخذون أنفسهم بالثقافة الفارسية والهندية ، ومن أجل ذلك نعى عليهم ابن قتيبة أنهم يهملون النظر في اللغة بينما يشغفون « بالنظر في النجوم والمنطق والفلسفة » ، والحديث عن « الكون والفساد وسمع الكيان والكيفية والكمية

(١) ابن خلكان ١/٣٩٠ .

والجوهر والعرض، ورأس الخط النقطة، والنقطة لا تنقسم»^(١) إلى غير ذلك مما كانوا يتشدقون به مما عرفوه من الفلسفة والثقافات الأجنبية .

وهذا كله يدل على أن كتّاب الدواوين كانوا يوسعون ثقافتهم ما استطاعوا، وعُنوا خاصة بالثقافة الفلسفية حتى يعمقوا أفكارهم ويرتبوا معانيهم ترتيباً دقيقاً. وهم كما عُنوا بمعانيهم عُنوا أيضاً بألفاظهم عناية قد تفوق عنايتهم بمعانيهم حتى ليقول الجاحظ : «أما أنا فلم أر قط أمثلاً لطريقة في البلاغة من الكتّاب، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً»^(٢) . ويقول أيضاً : إن الكتّاب لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة وعلى المخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ووروق : وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت إلى حسان المعاني^(٣) .

وما من ريب في أن هذه شهادة قيمة من الجاحظ لطائفة الكتاب وما كانوا يوقرون لألفاظهم من عناية، وإنها لعناية تستمر بهم فإذا هم ينقلون حرفة الكتابة من أسلوبها القديم: أسلوب الصنعة إلى أسلوب جديد من التصنيع ، وبعبارة أخرى من السجع والبديع . وبدأت هذه العناية واضحة منذ عصر البرامكة الذين روت كتب التاريخ عنهم ترفاً واسعاً ، وكان هذا الترف دفعهم هم والكتّاب من حولهم إلى التألق في حياتهم الاجتماعية، والتألق أيضاً في حياتهم الأدبية ، وخير من يصور ذلك جعفر بن يحيى البرمكي صاحب الدواوين في عهد الرشيد فقد أشاد السابقون ببلاغته . يقول الجهشيارى : « كان جعفر بليغاً كاتباً ، وكان إذا وقع نُسخة توقيعاته ، وتُدورست بلاغاته »^(٤) . ويقول ابن خلدون عنه : « وإن الناس كانوا يتنافسون في الحصول على توقيعاته

(١) انظر أدب الكاتب لابن قتيبة (طبع) (٢) البيان والتبيين ٤ / ٢٤ .

معلية الوطن) ص ٣ . (٤) الوزراء والكتّاب ص ٢٠٤ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ١٣٧ .

ليقفوا منها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل إنها كانت تباع كل توقيع بدينار»^(١). ووصفه ثمامة بن أشرس فقال: «كان جعفر بن يحيى أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهل والحزالة والحلاوة، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة ولو كان في الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة»^(٢). وفيه تقول عنان جارية الناطق^(٣):

بَسَدَيْهَتْهُ وَفَكَرْتُهُ سَوَاءٌ إِذَا التَّبَسَّتْ عَلَى النَّاسِ الْأُمُورُ

وقد كان جعفر يباليغ في تنميق عباراته، وهو تنميق كان يستمده من حياته التي بنيت بناء من التنميق والتصنيع والزينة حتى قالوا إنه كان يُتَّخَذُ في عصره مثلاً للتصنيع والزخرف في ثيابه^(٤)، فكان طبيعياً أن يسقط ذلك إلى أدبه وبيانه. ولعل أهم ما يلاحظ من ذلك أنه كان يلتزم السجع في كتبه وتوقيعاته، روى ابن خلكان أنه وقع إلى بعض عماله: «قد كثر شاكوك وقل شاكروك، فإذا اعتدلت، وإما اعتزلت»^(٥). وأكبر الظن أن جعفر كان يبنى عباراته على السجع، وهذا أول مظهر من مظاهر مذهب التصنيع. ويبدو أن هذا الاتجاه في صناعة النثر لم يقتصر حينئذ على جعفر البرمكي ودواوينه بل أخذ ينتشر وخاصة عند طلاب الحاجات الذين يرفعون ظلاماتهم أو يقدمون توسلاتهم، فقد روى اللاحظ أن ابن سيبابة الشاعر كتب إلى يحيى بن خالد البرمكي برسالة بليغة كان عامة أهل بغداد يحفظونها وهي رسالة بُنيت كلها على السجع^(٦) ومرّ بنا في الفصل الثاني من الكتاب الأول أن كثيراً من الوعاظ كانوا يستخدمون السجع في أواخر عصر بني أمية، وقد استمر ذلك في العصر العباسي الأول، وفي عيون الأخبار لابن قتيبة نماذج من ذلك في مقاماتهم بين أيدى الخلفاء^(٧).

-
- (١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٣ .
 (٢) البيان والتبيين ١/ ١٠٦ .
 (٣) الوزراء والكتاب ص ٢٠٤ .
 (٤) البيان والتبيين ٣/ ٢١٥ .
 (٥) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ١٠٥ .
 (٦) البيان والتبيين ٣/ ٢١٥ .
 (٧) عيون الأخبار ٢/ ٣٣٢ - ٣٤٤ .

وإذا فنحن لا نُبعد إذا قلنا إن عنصر السجع وهو العنصر الأول في مذهب التصنيع أخذ يظهر منذ القرن الثاني الهجري ، وإذا تركنا هذا القرن إلى القرن الثالث وجدنا هذا العنصر يظهر في الرسائل السياسية وعند كُتَّابها ، ولعل أقدم نموذج يصور ذلك وصية^(١) طاهر بن الحسين مؤسس الدولة الطاهرية المتوفى سنة ٢٠٧ للهجرة لابنه عبد الله عند ما عين والياً على ديار ربيعة في سنة ٢٠٦ هـ . ويستمر السجع عند الكُتَّاب وعلى رأسهم عمرو بن مسعدة الصولي الذي كان يلي شئون الدواوين لعهد المأمون ، وكان جده صول من ملوك جرجان وهم ترك^(٢) ، وقد نشأ عمرو في دواوين البرامكة وتربى على أساليبهم ، ولذلك لم يكن غريباً أن نجده يحتذى أحياناً على أمثلتهم من السجع والتنميق في عباراته ، ولعله من أجل ذلك كان المأمون يعجب برسالاته^(٣) . وانظر إليه يكتب إلى الحسن بن سهل^(٤) :

« أما بعد فلأنك ممن إذا غرس سقى ، وإذا أسس بنى ، ليستتم تشييد أسسه ، ويحتجى ثمار غرسه ، وبنائك عندي قد شارف الدروس ، وغرسك مُشَفِّفٍ على اليبوس ، فتداركُ بناء ما أسست ، وسقى ما غرست إن شاء الله . وهذه الرسالة القصيرة تدلنا على ضميمه أخرى أخذت تُضمَّم إلى سجع أصحاب الدواوين في القرن الثالث ، ونقصد ما يتشع به سجعهم من صور بيانيه ، وضميمة ثانية تلاحظ عند عمرو وهي سعة الخيلة في كتاباته مع الإيجاز الشديد . روى الرواة أن المأمون أمره أن يكتب لشخص كتاباً إلى بعض العمال بالوصية عليه والاعتناء بأمره في سطر واحد فكتب إليه^(٥) :

« كتابي إليك كتابٌ واثقٌ بمن كُتِبَ إليه ، متعني بمن كُتِبَ له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله ، والسلام » .

وما من ريب في أن هذا الكتاب - على قصره - يصور المهارة العقلية

(١) تاريخ الطبرى ١٠٤٦/٣ والكامل - (٣) وفيات الأعيان ١/٣٩٠ .

لابن الأثير ٦/٢٦٨ . (٤) معجم الأدباء ١٦/١٣٠ .

(٥) وفيات الأعيان ١/٣٩٠ . (٢) معجم الأدباء طبع مصر ١/١٦٥ .

التي كان يحتاجها كاتب الديوان في العصر العباسي ، فهو يحتال في كتاباته ، وهل في هذا الخطاب سوى الاحتيايل بصورة طريفة عن الفكرة التي يريد الكاتب أن يؤديها ؟ اتسع هذا الاحتيايل واتسع ما يُطوَى معه من عناية باللفظ كلما تقدمنا مع الزمن في العصر العباسي . ومن اشتهر في هذا الجانب كاتب آخر من الصوليين كان يكتب للمتوكل وهو إبراهيم بن العباس الصولي ، وكان يشبه عمرو بن مسعدة في دقة التعبير وحبسكته وما يُطوَى في ذلك أحيانا من سجع ، وانظر إليه يكتب لابن الزيات مستعظماً^(١) :

« كتبتُ وقد بلغت المُدنية المحزّة ، وعدت الأيامُ على بعد عدّواي بك عليها ، وكان أسوأ الظن وأكثرُ خوفي أن تسكن في وقت حركتها ، وتكف عني أذاتها ، فصرت أضرتُ علىّ منها ، كَفَّ الصديق عن نصرتي خوفاً منك ، وبادر إلى العدوِّ تقرباً إليك » .

وأنت ترى عند إبراهيم عمق التفكير وطرافته كما ترى تأنقه في لفظه ، ويظهر أن ذلك كان سمة عامة بين الكتّاب فهم جميعاً يبالغون في العناية بألفاظهم . ولكن ينبغي ألا يُفهم من ذلك أنهم كانوا يعمدون إلى السجع دائماً ، إنما هذه رسائل أختارناها لهؤلاء الكتّاب ، ولهم رسائل أخرى لاسجع فيها . ومعنى ذلك أن الكتّاب حتى منتصف القرن الثالث كانوا يسجعون أحيانا وأحيانا لا يسجعون ، وقد استمر ذلك شأنهم حتى أواخر هذا القرن . ومن أبرعهم في هذا الجانب أبو العباس بن ثوبة المتوفى عام ٢٧٧ للهجرة ، وهو من أصل نصراني^(٢) . وكان يسجع أيضاً في بعض رسائله^(٣) ، وكان له أخ يسمى جعفر بن محمد بن ثوبة تولّى ديوان الرسائل في عهد الوزير عبيد الله ابن سليمان وتوفى عام ٢٨٤ هـ ، وقد بقي أبناؤه يتوارثون من بعده ديوان الرسائل في بغداد حتى تسلمه منهم أبو إسحق الصابي عام ٣٤٩^(٤) . وبما لاشك فيه أن هذه الأسرة لعبت دوراً مهماً في استخدام السجع والتزامه .

(٣) نفس المصدر ١٤٧/٤ .

(٤) معجم الأدباء ١٨٨/٧ .

(١) معجم الأدباء ١٧٠/١ .

(٢) نفس المصدر ١٤٤/٤ .

وقد يكون من الطريف أن نلاحظ أن أهم الكتّاب الذين نموا السجع في القرنين الثاني والثالث كانوا من الأجانب وعلى رأسهم أسرة البرامكة الفارسية ، وأسرة الصوليين التركية ، وأكبر الظن أن الجنس لم يكن له دخل في المسألة ، فنحن نعرف كما مر بنا في القسم الأول من هذا الكتاب أن السجع قديم في اللغة العربية ، وغاية ما هنالك أنه اختفى أول الأمر في الكتابة الديوانية ثم أخذ يظهر فيها من حين إلى حين منذ القرن الثاني . على أننا لا نصل إلى أواخر القرن الثالث حتى نجد دوافع كثيرة تدفع بعض الناس إلى التزامه في كتاباتهم ، وكأنما حياتهم المليئة بالزخرف والتصنيع هي التي دفعتهم إلى ذلك دفعاً ، ومن كان يلتزم ذلك أبو العيناء المتوفى عام ٢٨٢ هـ ، فقد كتب له أبو علي البصير رسالة جاء في آخرها : « وقد نفذت لي إليك رسالة العتاب ، على مخرج ألفاظ الكتّاب . وقد ملت إلى السجع على علمي بخساسة حظه ، وركاكة معانيه ولفظه ، إذ كنت تلوى به لسانك ، وتثنى إليه عنانك ، قطعاً لحجتك ، وإزاحة لعلتك»^(١) . وبين أن ينص على أن أبا العيناء يلتزم السجع في رسائله كما ينص على أن السجع خسيس الحظ ، ركيك اللفظ ، وقد يكون في ذلك ما يدل على أنه لما يشع وينتشر .

على أننا لا نصل إلى عصر المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) حتى نجد السجع يصبح عاماً في كل ما يصدر عن دواوينه ، فليس هناك وزير ولا كاتب إلا وهو يتخذ السجع في صياغته . وارجع إلى كتاب تاريخ الوزراء للهلال بن المحسن ؛ وهو الكتاب الذي يؤرخ هذه الحقبة من خلافة المقتدر ، فستجد كل ما يصدر عن هذا العهد يصدر مسججاً ، سواء في ذلك ما يصدر عن كاتب الرسائل من آل ثوابة وما يصدر عن الوزراء أمثال ابن الفرات . وهو أول وزراء المقتدر ثم علي بن عيسى الذي كان يتداول معه الوزارة لهذا العهد ، وقد روى له الهلال طائفة كبيرة من الكتب والرسائل وكلها مسجوعة^(٢) ؛

(١) اختيار المنظوم والمنثور ، ورقة ٢٣٣ . (طبع بيروت) ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢ .

(٢) انظر تاريخ الوزراء للهلال بن المحسن . ٣٤٤ . وانظر أيضاً معجم الأدباء ٧ / ١٣٦١ .

وكذلك كان شأن الوزير الثالث في هذا العهد وهو الخاقاني فقد كان صَبِيًّا بالسجع مغرماً به ، وله في ذلك نوادر كثيرة ، منها أن عامل النيل تأخر في حمل غلّة إليه فكتب له : « احمل الغلّة ، وأزح العِدْلَة ، ولا تجلس متودِّعاً في الكلِّية » . ثم التفت إلى الكاتب وقال له : أفي النيل بقّ يحتاج إلى كلل ؟ فقال : إى والله وأى بقّ ومن أجله يلزم الناس الكلل نهاراً وليلاً. (١) ووقّع في كتاب إلى بعض عمّاله : « الزمّ - وفقك الله - المنهاج ، واحذر عواقب الاعوجاج ، واحمل ما أمكن من الدجاج إن شاء الله » فحمل العامل دجاجاً كثيراً على سبيل الهدية ، فقال : هذا دجاج وقّرت به بركة السجع (٢) . وكما كان يسجع الوزراء لعهد المقتدر كان يسجع الكتاب في دواوينه وعلى رأسهم محمد بن جعفر بن ثوابية ، وقد احتفظ له ياقوت بمشور وجهّه عن الخليفة إلى العمال في الأقاليم المختلفة ، وهو مسجوع كله (٣) ويظهر أن الولاة أخذوا يقلدون هؤلاء الكتّاب والوزراء وما كان من سجعهم ، فقد روى الهلال أن أبا الحسن بن نيداد - وكان يتقلد كُورَ الأهواز - كتب إلى علي بن عيسى كتاباً سجع فيه سجعاً زاد فيه فكتب إليه : « عَوَلتَ بنا على كلام ألفتَه ، وخطاب سجعته ، أوجب صرّفك عما توليته » (٤) . وفي هذا كله أكبر الدلالة على أن السجع عم في الكتابة الديوانية منذ عصر المقتدر . وربما كان من الأدلة على ذلك أننا نجد الخليفة القاهر الذي ولى الخلافة بعد المقتدر يطلب إلى بعض من يقفون على أخبار بني العباس أن يصفهم ثم يقول له : « ولا تغيب عني شيئاً ، ولا تحسّن القصّة ، ولا تسجع فيها » (٥) . وكأن الخليفة ملّ كثرة ما يقرأ من السجع الخالص ، فهو يطلب كتاباً لا يسجع فيه وزرى من كل ما سبق أن السجع - وهو أحد الجوانب المهمة في التصنيع وزخرف الأساليب - أخذ يظهر من حين إلى حين منذ القرن الثاني ، وما يزال ينمو

(٤) تاريخ الوزراء ص ٣٣٥ .

(٥) مروج الذهب للمسعودي ٤/٢٤١ .

(١) تاريخ الوزراء ص ٢٧٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٧٧ .

(٣) معجم الأدباء ١٨/٩٧ .

ويتسع استخدامه في القرن الثالث ، حتى إذا وصلنا إلى عصر المقتدر أصبح عاماً بين كل الكتاب في ديوان الخلافة ، فليس هناك شيء يُكْتَبُ إلا ويصاغ في أسلوب السجع وبذلك يتكامل أحد الجانبين الأساسيين في مذهب التصنيع وهما : السجع والبديع ، وسرى - عما قليل - الكتاب يحققون له جميعاً الجانب الثاني : جانب البديع والترصيع .

التصنيع ودواوين الإمارات الفارسية

إذا تركنا عصر المقتدر طلع علينا عصر جديد هو عصر الإمارات التي تقسمت فيما بينها إيران وخراسان ، ونقصد إمارة السامانيين الذين امتد نفوذهم في خراسان وما وراء النهر من سنة ٢٦١هـ إلى سنة ٣٨٩هـ ، ثم إمارة البويهيين الذين بسطوا نفوذهم على الولايات الجنوبية الغربية من إيران كما بسطوه على العراق وبغداد نفسها إذ كان الخليفة العويبة في أيديهم ، وقد استمر سلطانهم من سنة ٣٢١هـ إلى سنة ٤٤٧هـ. وبجانب هاتين الإمارتين الكبيرتين كانت توجد إمارتان صغيرتان : إحداهما في خوارزم ، والثانية في طبرستان وچرجان حيث أسرة الزياريين ، ثم تظهر الدولة الغزنوية في أوائل القرن الرابع فستولى على ما كان بيد السامانيين . والغزنويون يرجعون إلى أصل تركي بينما يرجع السامانيون والبويهيون والزياريون إلى أصول فارسية ، وأسس الغزنويون لهم أول الأمر إمارة في أفغانستان ثم توسعوا فاستولوا على إمارة السامانيين .

وقد هيأت هذه الإمارات والدول المختلفة لحركة أدبية وعقلية واسعة ، بحيث يمكن أن يُعَدَّ هذا العصر - على الرغم مما كان فيه من انقسام الدولة العباسية على هذا النحو - أحفل العصور العربية بالنشاط الأدبي والعلمي والفلسفي . ويكفي أنه ظهر في هذا العصر أشهر فلاسفة الإسلام وعلمائه من مثل ابن

سينا الذي خدم في بلاط السامانيين ، والبيروني الذي خدم أولاً في بلاط ملوك خوارزم ثم خدم في بلاط ملوك الدولة الغزنوية .

على أن الجانب العقلي لا يهمننا إنما يهمننا الجانب الأدبي وما لقي الأدب حينئذ من تشجيع ورواج . والغريب أن الحياة الأدبية ازدهرت في هذا العصر ازدهاراً لم تعرفه في أي عصر سابق ، إذ كان كل حاكم في إمارة من هذه الإمارات السابقة يختار في حاشيته جماعة من الأدباء الممتازين لينافس بهم حكّام الإمارات والدول الأخرى ، وبذلك ظهر في كل مركز من مراكز هذه الإمارات حركة أدبية أو قل سوقاً أدبية ، وساعد على ذلك أن هؤلاء الحكام استوزروا كبار الأدباء في أقاليمهم ، ومن ثمّ أصبحنا نسمع في كل إمارة باسم أديب بل باسم أدباء ممتازين يتلون شئونها ويشرفون على مراقبتها ، فعند السامانيين نجد العميد والد ابن العميد الكاتب المشهور كما نجد الإسكافي الكاتب المعروف ، ونجد أيضاً أسرة بني ميكال النيسابورية ، وقد ولى كثير منها دواوين السامانيين ، وعند البويهيين نجد ابن العميد كما نجد الصاحب بن عباد ، وهما أهم كتّاب العصر ، وفي الدولة الزيرية نجد أميراً من أمرائها يشتهر بالكتابة وهو قابوس بن وشمكير . ولم يقف هذا الامتياز للأدباء وصلتهم بالحكام عند أصحاب الإمارات الكبيرة ، فقد كان بعض حكام البلدان الصغيرة يتخذون كتّاباً مشهورين مثل البُسْتِي كاتب أمير مدينة بست في أفغانستان ثم كاتب الدولة الغزنوية ، وإن الإنسان ليخيل إليه أن كل حاكم في مدينة أو مقاطعة بإيران لم يعد يشغله إلا أن يجمع حوله بطانة من الكتّاب تعيش في بلاطه ، ويكفي للدلالة على اعتداد الحكام بالكتّاب أن نجدهم في بغداد يستخدمون على ديوان الرسائل كتّاباً صابئاً ليس من المسلمين ، هو أبو إسحق الصابي لما عرف من بلاغته ومهارته البيانية . وما يدل على ما كان للكتابة الجليدة في هذا العصر من شأن حتى في السياسة نفسها ما رواه صاحب اليتيمة من أن ابن العميد « كتب رسالة إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة وخروجه عليه ، فلما قرأها ابن بلكا رجع وأتاب ، وقال لقد ناب كتاب

ابن العميد عن الكتاب في عرّك أدبى واستصلاحى وردّى إلى طاعة صاحبه^(١). وهذه القصة تدل على قيمة الكتب المحبّرة في القرن الرابع وأنها كانت تقوم مقام الجيوش في الظفر بالأعداء ، لذلك اهتم كل أمير بوزرائه وكتّابه ، واهتم الوزراء والكتّاب أنفسهم بصناعة كتبهم وتحبيرها ، وإدخال كل ما يمكن من ضروب التصنيع والتجميل عليها ، وقد كانت حياتهم تؤهل لذلك إذ كانت تقوم على التصنيع والتنميق . يقول بعض الشعراء في هجاء كتّاب الدولة السامانية^(٢) :

أكتّاب ديوانِ الرسائلِ ما لكم تجمّلتمُ بل مثمُّ بالتّجملِ

وكذلك كان كتّاب الدولة البويهية يتأنقون ويتصنعون في حياتهم ، وكان الصاحب بن عباد خاصة يعجب بالخرزّ ويأمر بالاستكثار منه على خدمه وغلمانه فكانوا يبدون في الخرز الفاخرة الملونة^(٣) . وغير كتّاب السامانيين والبويهيين كانوا يتأنقون تأنقهم ، ولا غرابة فهم يعيشون في قصور هؤلاء الحكام والأمراء معيشة مترفة تقوم على التصنيع والتنميق ، ولذلك كان طبيعياً أن يسقط هذا الجانب الذى يتصل بحياتهم إلى أدبهم وفهم ، بحيث أصبح التصنيع أساسياً في كل ما تنتجه هذه القصور ومن يعيشون فيها من هؤلاء الكتّاب والأدباء.

ومهما يكن فإن الإمارات الفارسية هيأت لنهضة أدبية واسعة ، وقد اقترنت هذه النهضة بمذهب التصنيع ، ولعل من الطريف أن نذكر هنا أن كل إمارة من هذه الإمارات اشتهرت بمراكز مختلفة للنهضة الأدبية ، ففي الإمارة السامانية نجد نيسابور التى أخرجت الثعالبي ، كما نجد بخارى العاصمة التى « كانت مثابة المجد وكعبة الملك وجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء العصر »^(٤). وفي الإمارة البويهية نجد همدان التى أخرجت بديع الزمان ،

(١) التييمة (طبعة الصاوى) ١٤٧/٣ .

(٢) التييمة ١٧١/٣ .

(٣) التييمة ٩٥/٤ .

(٤) التييمة ٧٤/٤ .

وأصبهان التي أخرجت الصاحب بن عباد ، والتي يقول فيها صاحب اليتيمة :
« لم تنزل أصبهان مخصوصة من بين البلدان بإخراج فضلاء الأدباء وفحولة الكتّاب
والشعراء »^(١). كما نجد الرّبيّ دار عضد الدولة البويهى ومستقر ابن العميد .
وأخرجت خوارزم لهذا العصر أبا بكر الخوارزمى الكاتب المشهور ، كما
أخرجت طبرستان قابوس بن وشمكير ، ولعل من الطريف أن الثعالبي في
اليتيمة لم يبيّن كلامه على أدباء هذا العصر حسب الإمارات ، بل بناه حسب
المدن والبلدان . على أن هذا لا يجعلنا ننسى ما كان من تشجيع الأمراء والحكام
للحركات الأدبية في هذه المراكز ، وخاصة بنى بويه ، إذ كان كثير منهم
أدباء ، وقد فتح لهم الثعالبي في يتيمة فصولا لاستعراض هذا الجانب فيهم^(٢) .
والحق أن أمراء الدول الإيرانية عامة شجعوا — بكل وسيلة تمكنهم — الأدباء
والكتّاب . ومن الظواهر المهمة التي اقترنت بهذا العصر أننا نجد الأدباء ينتقلون
من بلاط إلى بلاط يرفعون كتبهم ومؤلفاتهم إلى الملوك والأمراء ، على نحو ما لاحظ
براون في كتابه (تاريخ الفرس الأدبي) إذ ذكر أن الثعالبي ألف كتاب
« لطائف المعارف » للصاحب بن عباد « والمهجع » و« التمثل والمحاضرة » لشمس المعالي
قابوس بن وشمكير ، و« سحر البلاغة » و« فقه اللغة » للأمير أبى الفضل الميكالى ،
و« النهاية فى الكناية » و« نثر النظم » و« اللطائف والظرائف » للمأمون بن مأمون أمير خوارزم^(٣) .
وهؤلاء الأمراء والملوك لم يكرموا فقط من كانوا يرحلون إليهم ، بل كانوا يكرمون
أيضاً أبناء أقاليمهم من فقهاء وشعراء وأدباء ولغويين وفلاسفة ، ولذلك كنت
تجد حول كل قصر طائفةً من الشعراء والأدباء والعلماء . ولعل مما يدل على
مدى حرص هؤلاء الأمراء على العلماء والأدباء ما رواه براون عن السلطان محمود
الغزنوى من أنه علم أن فى بلاط ملك خوارزم طائفة من العلماء والفلاسفة مثل
ابن سينا والبيرفى وأبى سهل المسيحى وأبى الخير الحسن بن الخمار وأبى نصر بن العراق ،
فكتب إليه أن يعيهم حتى يشرّفوا بحضرته ويفيد هو من ثقافتهم ومهارتهم ،

E.C. Browne, A Literary History. (٣)

(١) اليتيمة ٢٦٧/٣ .

of Persia, 1928, vol. 11, p. 101

(٢) اليتيمة ١٩٥/٢ وما بعدها .

وقد لبي الدعوة البيروني والحمار والعراق ، ورفضها ابن سينا وأبو سهل المسيحي . وغير محمود الغزنوي من ملوك السامانيين الذين سبقوا دولته وماوك البويهيين والزياريين والحوارزميين كانوا يعنون هذه العناية بحشد العلماء والأدباء في بلاطهم وحول قصورهم ، وكان ذلك كله مبعث نهضة أدبية لا تغلو إذا قلنا إنها — من وجهة الكتابة والصناعة الديوانية — تعلقو على كل نهضة سبقتها في هذا الجانب ، وتتفوق على كل حركة تقدمتها ، إذ أترف الذوق الكتابي لهذا العصر بسبب ترف الملوك والأمراء الذين كانوا يقومون عليه ، وأصبحنا نجد أساس البلاغة أن تكون حلية وزينة ، فهي تستخدم استخداماً زخرفياً ، تستخدم كأداة من أدوات الترف والزينة ، وكل أمير يفخر بما حصل عليه من هذه الأدوات والطرّف الزخرفية . وبذلك يصل مذهب التصنيع إلى الغاية التي كان يترنّو إليها منذ القرن الثاني ، وهي غاية كلها زخرف وتصنيع ، وستقف قليلاً عند أهم كاتب أثر في هذا الجانب ، وهو ابن العميد كاتب البويهيين ، فهو يعتبر أستاذ المذهب الذي خطا به نحو هذه الغاية من التجميل والزينة ، وعلى مثاله كان يَحْتَدِي الكِتَاب في عصره وبعد عصره .

٤

ابن العميد : حياته وثقافته

هو أبو الفضل محمد بن الحسين ، وهو فارسي من مدينة قُم^(١) ، وهي مدينة شيعية ، ولذلك لانعجب إذا رأيناه شيعياً على مذهب الإمامية . وقد نشأ في بيت أدب وكتابة ، إذ كان أبوه كاتباً لما كان بن كاكى ، ولما قتله السامانيون في بعض مواقعهم معه أخذوا كاتبه أبا عبد الله الحسين بن محمد المعروف بكَلَّةَ والد صاحب الترجمة أسيراً معهم ، ثم أفرجوا عنه وأكرموه ، ورتبوه في الدار

(١) انظر فيها معجم البلدان لياقوت .

السلطانية ، وسرعان ما تقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر ولُقِّبَ الشيخ كالعادة فيمن يلي ذلك الديوان كما لقب بالعميد ، ويقول أبو إسحق الصابي في كتابه التاجي : إن رسائل العميد لا تقصر في البلاغة عن رسائل ابنه أبي الفضل ابن العميد^(١) . ويظهر أن العميد لم يأخذ ابنه معه إلى بلاط السامانيين ، بل تركه في رحاب البويهيين . يقول صاحب اليتيمة : « ولم يزل أبو الفضل في حياة أبيه وبعد وفاته بالرى وكُوِّرَ الجبل وفارس يتدرج إلى المعالي ويزداد على الأيام فضلاً وبراعة حتى بلغ ما بلغ واستقر في الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ورياسة الجبل »^(٢) . وكان تقلده هذه الوزارة عام ٣٢٨ هـ وظل يتقلدها إلى وفاته عام ٣٦٠ هـ .

ولسنا نعرف شيئاً ذا قيمة عن أساتذة ابن العميد سوى ما عرفناه عن أبيه ، ثم ما ذكره صاحب الفهرست عن أستاذه له يسمى محمد بن علي بن سعيد المعروف باسم سمكة^(٣) ، وقد سماه صاحب اليتيمة ابن سمكة^(٤) ، ويقول صاحب الفهرست إن له كتاباً في أخبار العباسيين^(٥) . على كل حال ليس بين أيدينا ما يدل دلالة واضحة على المتابع الثقافية التي نهل منها ابن العميد ، غير أننا لا نتابعه في آثاره وفي حياته أثناء وزارته حتى نجده يلم بجميع ضروب الثقافة لعصره ، ولعله من أجل ذلك سمي باسم الجاحظ الثاني^(٦) ، وألمع مسكويه قيِّم دار كتبه في كتابه (تجارب الأمم) إلى ثقافته فقال : إنه « أكتب أهل عصره وأجمعهم لآلات الكتابة حفظاً للغة والغريب وتوسعاً في النحو والعروض ، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام ، فأما القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه ، والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار ، فكان منه في أرفع درجة وأعلى رتبة » . ويقول

(١) اليتيمة طبع الصاوي ١٣٨/٣ .
 (٢) اليتيمة ١٣٩/٣ .
 (٣) الفهرست لابن النديم (طبع مصر)
 (٤) اليتيمة ١٤٣/٣ .
 (٥) الفهرست ص ٢٠٠ .
 (٦) وفيات الأعيان ٥٧/٢ .

مسكويه : « أما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جَسَرَ أحد في زمانه أن يدعيها بحضرته إلا أن يكون مستقيماً أو قاصداً قَصْدَ التعلم » . ويروى مسكويه أن أبا الحسن العامري الفيلسوف النيسابوري قصد إليه ، وقرأ عليه عدة كتب مستغلفة من كتب الفلسفة ، وليس هذا كل ما ذكره مسكويه عن ثقافة ابن العميد ، بل إنه يقول أيضاً : « كان ابن العميد يختصُّ بغرائب من العلوم الغامضة التي لا يدعيها أحد كعلوم الحِجَل (الميكانيكا) التي يُحتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والطبيعة ، والحركات الغريبة ، وجر الثقل ، ومعرفة مركز الأثقال ، وإخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة إلى الفعل » (١) . وأكبر الظن أن هذا الاتساع في الثقافة الفلسفية وما يتصل بها من علوم الطبيعة والهندسة والحِجَل هي التي جعلت الرَّازِيَّ يتقدم إليه بتفسيره للمقالة العاشرة في أصول الهندسة من كتاب إقليدس بعد أن نسقها وجودها (٢) وأكبر الشعراء في ابن العميد هذا الجانب كما أكبروا فيه بلاغته وفصاحته ، وقد عبّر عن ذلك المتنبي تعبيراً بديعاً في قصيدته الرائية والدالية ، ومن قوله في الأولى :

شاهدتُ رَسَطَ ليس والإسكندرا	مَنْ مَبْلَغُ الأعرابِ أنى بعدهم
متملكاً ، متبدياً ، متحضراً	وسمعت بطليموس دَأرس كُتْبِيه
ردَّ الإلهُ نفوسهم والأعصراً	ولقيتُ كلَّ الفاضلين كأنما

ويقول في الثانية :

رأيتُ ، فارسيةً أعيادُهُ	عربيُّ لسانهُ ، فلسفيُّ
في بلادٍ أعرابهُ أكرادُهُ	خلق الله أفصح الناس طراً

وهذا كله يؤكد أن ابن العميد أتاح لنفسه ثقافة واسعة . وكما عمل على تثقيف نفسه عمل أيضاً كل ما يستطيع في خدمة ركن الدولة ثم ابنه عضد الدولة ، كان يقود الجيوش بنفسه ، واستطاع بمقدرته أن ينشر نفوذ عضد

(١) انظر في هذه النصوص فصلاً طويلاً كتبه

الجزء الثاني من ص ٢٧١ - ٢٨٢ .

(٢) الفهرست ص ٣٧٢ .

مسكويه عن ابن العميد في كتابه تجارب الأمم

الدولة على بغداد والعراق . وقد خرج في أواخر حياته على رأس جيش لقتال الزعيم الكردي حسويه ، ولكنه توفّي في الطريق في صفر عام ٥٣٦٠هـ^(١) . وقد تبيّن عمره على ستين سنة^(٢) .

٥

تصنيع ابن العميد

وهذا الوزير المثقف ثقافة واسعة يُعَدُّ أستاذ عصره في فن التصنيع ، وقد أقرّ له ببرايعته وفصاحته وامتيازه في كتابته كل من تصدّوا لترجمته ، يقول صاحب اليتيمة : « هو عين المشرق ولسان الجبل ، وعماد ملك آل بويه ، وصدور زرائعهم ، وأوحد العصر في الكتابة وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزارة ، والضرب في الآداب بالسهام الفائزة ، والأخذ من العلوم بالأطراف القوية ، يُدعَى الجاحظ الأخير ، والأستاذ والرئيس ، ويضرب به المثل في البلاغة ، وينتهي إليه في الإشارة بالفصاحة والبراعة ، مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها ، إلى براعة المعاني ونفاستها ، وما أحسن وأصدق ما قال له الصاحب وقد سأله عن بغداد عند منصرفه عنها : بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد ، وكان يقال : بُدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد^(٣) . وفي هذه الفقرة ما يدل دلالة واضحة على مدى ما وصل إليه ابن العميد في عصره من مكانة أدبية ممتازة ، وهي مكانة لم يأخذها عن طريق مركزه السياسي ، وإنما أخذها عن طريق فنه الخالص إن كان ينحو نحواً بديعاً من التصنيع والزخرف في كتابه ، وقد مر بنا في غير هذا الموضوع أن الكتاب اصطلاحوا منذ عصر المقتدر على أن يعمموا السجع في كل ما يكتبون ، واستمر ذلك من بعدهم ،

(١) انظر ترجمة ابن العميد في دائرة المعارف الإسلامية المترجمة ، المجلد الأول ص ٢٤٤ . (٢) تاريخ ابن الأثير (طبع أوروبا) ٤٤٦/٨ . (٣) اليتيمة ١٣٧/٣ .

وكان ابن العميد يسجع في كتابته ولكن ليس هذا ما يلفتنا عنده، إنما الذى يلفتنا حقاً هو أن مذهب التصنيع تماثل على يديه فى الصورة التى كانت تنتظره منذ القرن الثانى ، ونقصد صورة السجع من جهة والاحتكام إلى البديع فيما ينشئ الكاتب من جهة أخرى ؛ ومن أجل ذلك إذا قلنا : إن ابن العميد هو أستاذ مذهب التصنيع بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة لم نُبعد ؛ لأنه أول كاتب - فيما نعرف - احتكم إلى السجع فى كتابته ، كما احتكم إلى البديع من جناس وطباق وتصوير ، وقد هبأه لذلك أنه كان ذا عين تصويرية ، بل لقد كان ذا شغف بفن التصوير نفسه . يقول مسكويه : « لقد رأيتُه يتناول فى مجلسه الذى يخلو فيه بثقاته وأهل أنسسته التفاحة وما يجرى مجراها ، فيعبث بها ساعة ثم يدحرجها ، وعليها صورة وجه ، وقد خطها بظفره ، لو تعمد لها غيره بالآلات المعدة ، وفى الأيام الكثيرة ما استوفى دقائقها ، ولا تأتى له مثلها » . ولا شك فى أن هذه النزعة التصويرية فيه كان لها أثر مهم فى نثره ، إذ جعلته نثراً مصوراً يهتم صاحبه بصنع الصور والرسوم فى كتاباته ، كما جعلته يهتم بألوان البديع الأخرى من طباق وجناس وغيرهما ، وكأنه كان يحسُّ بأن هذه الألوان جميعاً من تصوير وغير تصوير تقوم من نثره مقام الألوان الحسية من لوحة الرسام . وانظر إليه يكتب إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة ، فيستهل رسالته على هذا النمط^(١) :

« كتابى ، وأنا متأرجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب حقاً ورعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحديث غلؤل^(٢) وخيانة ، وتتبعهما بآبأ نف^(٣) خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يحبط أعمالك ، ويمحق كل ما يُرعى لك . لا جرم أنى وقفت بين ميل إليك وميل عليك أقدم رجلا لصدك ، وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يداً لاصطلامك^(٤) واجتياحك ، وأثنى

(٣) آنف : أشد .

(٤) الاصطلام : الاستئصال .

(١) اليتيمة ١٤٥/٣ .

(٢) غلؤل : خيانة .

ثانية لاستبقاتك واصطلاحك، وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ، ضناً
 بالنعمة عندك ومنافسة في الصنعة لديك، وتأميلاً لفيثتك^(١) وانصرافك ، ورجاء
 لمراجعتك وانعطافك ، فقد يغرب العقل ثم يثوب ، ويعزب اللبّ ثم يثوب ،
 ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضع الرأي ثم يستدرك ،
 ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة فإلى رخاء ،
 وكل غمرة فإلى انجلاء ، وكما أنك أتيت من إساءتك ، بما لم تحسبه أولياؤك
 فلا بدع أن تأتي من إحسانك بما لا ترتقبه أعداؤك، وكما استمرت بك الغفلة
 حتى ركبت ما ركبت ، واخترت ما اخترت ، فلا عجب أن تنتبه انتباهة
 تبصر فيها قبح ما صنعت ، وسوء ما آثرت ، وسأقيم على رسمي في الإبقاء والمماثلة
 ما صلح ، وعلى الاستيناء^(٢) والمطاولة ما أمكن ، طمعاً في إنباتك وتحكيمياً
 لحسن الظن بك ، فلست أعدم فيما أظاهاه من إعدار ، وأرادفه من إنذار ،
 احتجاجاً عليك ، واستدراجاً لك ، فإن يشأ الله يرشدك ، ويأخذ بك إلى حظّك
 ويسدّك .

والرسالة كلها تمضي على هذا النحو من السجع والعناية بالبديع ، فكلها
 تحف من السجع وطرف من الجناس والطباق والتصوير ، فهي وشى خالص ،
 هي بديع وتطريز وترصيع ، إذ ما يزال ابن العميد يدمج وشى السجع في
 وشى البديع من التصوير والطباق والجناس ، فإذا أساليبه وكأنها ثروة زخرفية
 هائلة ، وهل هناك عبارة في هذه القطعة لم تحلّ بلون من ألوان البديع ، وهو
 يضع هذه الألوان الرائعة على ألفاظه المسجعة فإذا هي تختال في هذه المقدره
 البديعة من الزخرف والتصنيع . وأكبر الظن أن ابن العميد قد تأثر في صناعته
 بصناعة السجاد في إقليمه ، فهو يعانى في كل لفظة ما يعانى صانع السجاد
 في كل خيط ، ثم هو بعد ذلك يعنى بالوشى الذى تعبر عنه ألفاظه ، كما يعنى
 صانع السجاد بالوشى الذى تعبر عنه خيوطه . وعلى هذا النمط تحولت صناعة
 الكتابة عند ابن العميد إلى تطريز خالص ، وهو يحتال على هذا التطريز

(٢) الاستيناء : التانى .

(١) الفية : الرجوع .

بجمل كثيرة ، ولم لا ؟ ألم يتعلم فن الحيل ؟ وإذا فلماذا لا يشفع فنه بكل ما يمكنه من حيل ، وقد استطاع أن يصل عن هذه الحيل إلى بدع طريف في سجع ، وذلك أنه كان يعمد إلى تقصير عباراته ، وهذا التقصير أو هذا القصر من أهم الفروق بين سجعه وسجع أصحاب الدواوين من قبله ، وقد نظرَ فرأى نفسه يضطر في أحوال كثيرة إلى عبارات طويلة ، فكيف يوفق بين رغبته في القصر وبين طول هذه العبارات ؟ لقد فكر طويلاً في هذه الصعوبة ، وسرعان ما هداه تفكيره إلى حيلة طريفة : هي أن يوازن بين كل لفظة وقرينتها في العبارتين المتجاورتين ، وبذلك يرفع ما قد يحسه القارئ أو السامع من بعد الزمن في موسيقى الجمالين ، وكأني بابن العميد كان يعرف معرفة دقيقة أنه كلما طال الزمن الذي تنتظره الأذن في سماع العبارات المسجوعة نقص التلاؤم الموسيقي . وهو لذلك يعمد كما ترى في أول القطعة إلى السجع القصير الذي لا يأخذ من قارئه زمناً طويلاً ، ولكن استمر في القراءة تَرَهُ يضطر إلى الطول في عباراته ، فإذا يصنع إزاء هذا الطول الذي يثقل على أذن سامعه ؟ لقد وصل إلى حيلة طريفة من الموازنة بين العبارتين المتجاورتين موازنة تجعل ألفاظهما وكأنها جميعاً قد نُغِّمَتْ وسجِّعَتْ على نحو ما نرى في مثل قوله : « فإنك تُدلى بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة » ، وقوله : « وأبسط بدأ لاصطلامك واجتياحك ، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك » . وما من ريب في أنها حيلة لطيفة تلك التي احتال بها ابن العميد على مثل هذه العبارات فإذا هي تصبح وكأنها قصيرة لما تكامل فيها من حلاوة الموسيقى . وما تلك الحلاوة إلا ما يتخذها من المعادلة بين ألفاظ عباراته معادلات تجعل فيها هذا الائتلاف الموسيقي الطريف ، فكل كلمة تتعادل مع قرينة لها في الكلمة الأخرى وكأنما تطلبها لتعريف معها هذا العزف البديع الذي تمتاز به موسيقى ابن العميد . ولعل في هذا ما يشهد بأن ابن العميد كان يصنع في سجعته إلى أقصى حدود التصنيع التي يستطيعها وهو يحتمل على ذلك بوشى البديع من جهة كما يحتمل عليه بقصر الزمن في سجعته من جهة أخرى ، فإن طال زمن العبارتين المسجوعتين قصره بهذه الحيلة

من إحداه المعادلات والموازنات بين ألفاظ العبارتين حتى لا تخرج الأذن من ألفاظ العبارة الأولى إلا وتحس براحة صوتية إزاء كل كلمة من كلمات العبارة الثانية لأنها تماثل قرينة لها في العبارة السابقة من الوجهة الصوتية تمام التماثل . وهذه هي صورة التصنيع في الكتابة الديوانية عند ابن العميد ؛ فهو يعمد إلى زخرف البديع يوشى به لفظه ، وهو دائماً - كما تصوره يتيمة الثعالبي - يتخذ لفظاً مرصعاً بالسجع ، وإنه ليحتال في تحسين سجمه والإكثار من وشى بديعه حيلًا مختلفة ، أما سجمه فكان يخال عليه بالقصر فإن كان طويلاً قصره بما مرن عليه من المعادلة بين ألفاظه حتى لكأنها تتشابهك تشابهك توقعات الراقصين ، وأما بديعه فإنه كان يكثر منه ، وكان ما يزال يخال على اللفظة حتى يحمّلها وشى الطباق من جهة ووشى التصوير أو الجناس من جهة أخرى . ومن أجل هذه الخيل كلها وما اقترن بها من مهارة وتفنن كان ابن العميد زعيم مذهب التصنيع في عصره غير مدافع ولا منازع ، ومع ذلك فسئف عند صاحب بن عباد تلميذه وخرّيجه لئرى هل استطاع أن يضيف من جديد إلى تصنيع أستاذه .

٦

الصاحب بن عباد وتصنيعه

هو كافي الكفاة إسماعيل بن عباد ، ولد في إصطخر وقيل في الطالقان بين قزوين وأبهر سنة ٣٢٤ أو ٣٢٦ هـ وكان أبوه كاتب ركن الدولة وعضد الدولة البويهيين وكان شيعياً غير غال ، وتوفى في السنة التي توفى فيها ابنه . وابن عباد هو الوزير الثاني الذي لمع اسمه في بلاط البويهيين ، وقد درس على أبيه وأخذ عنه مذهبه الديني والسياسي ، وأخذ الأدب عن أحمد بن فارس اللغوي المعروف وأكمل دراسته ببغداد . ولما عاد إلى وطنه في الرّى خدم في دواوين أبي الفضل ابن العميد . ويظهر أنه أعجب به فقرّبه منه ، وما

لبث أن اختاره ليكون مريباً لمؤيد الدولة أخی عضد الدولة ، وكانت إقامة مؤيد الدولة بأصبهان فأقام معه فيها ولقب بالصاحب لصحبته له صغيراً . ولما تقلد شؤون الدولة بعد أخيه عضد الدولة اتخذ الصاحب وزيراً له واستمر على وزارته حتى توفي ، فوزر من بعده لأخيه فخر الدولة ، وظل في الوزارة حتى وافته منيته عام ٣٨٥ هـ . وقد قضى في الوزارة نحو ثمانية عشر عاماً^(١) ، ويقال إن أباه ألف كتاباً نصر فيه الاعتزال وكان محدثاً روى عنه ابنه وغيره^(٢) ، ويظهر أن ابن عباد ورث هذه الجوانب في أبيه ، فقد نشأ على الاعتزال^(٣) كما نشأ على التشيع ومحبة العلم ، ويقال : إنه خرج يوماً - وهو وزير - متطلساً متحنكاً بزى أهل العلم لرواية الحديث وإملائه على الناس . وكما كان يولع بالحديث كان يولع باللغة ، وقد ألف فيها كتاب المحيط في سبع مجلدات ، وله كتاب الإمامة يذكر فيه فضائل علي بن أبي طالب ، وأيضاً رسالة صغيرة في الكشف عن مساوئ المتنبي^(٤) . وما من ريب في أنه لو لم يشغل بالوزارة والكتابة لكان عالماً ممتازاً من علماء عصره ، ولعله من أجل ذلك كان يشجع على التأليف : كما كان يشجع على الشعر ، وكان يعجب بالكتابة الرفيعة ، ومدحه مكاتبة الشريف الرضي وأبو إسحق الصابي « واحتفَّ به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر من يربي عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي وملك رق المعاني »^(٥) . وحدَّث ابن بابك قال : « سمعت الصاحب يقول : مُدحت بمائة ألف قصيدة شعر ، عربية وفارسية ، وقد أنفقت أموالاً على الشعراء والأدباء والزوار والقُصَّاد »^(٦) . وكان ينافسه في هذه الحركة - على ما يظهر - سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى ، الذى فتح الثعالبي في يتييمته فصلاً مُدَّأحه من الشعراء ، وقد أنشأ داراً للعلم

(١) معجم الأدباء (طبع مصر) ١٧١/٦ . (٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ٧٥/١ .

(٢) نفس المصدر ١٧٢/٦ . (٥) اليتيمة ١٦٩/٣ .

(٣) اليتيمة ١٧٩/٣ ومعجم الأدباء ١٧٤/٦ . (٦) معجم الأدباء ٢٦٣/٦ .

في الكرخ ببغداد، كل ذلك منافسة لإسماعيل بن عباد^(١). ويقول ابن خلكان عن تلقيه بلقب الصاحب، وهو «أول من لُقِّبَ بذلك اللقب من الوزراء لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد، وذكر الصابي في كتاب التاجي أنه إنما قيل له الصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة ابن بويه منذ الصبا وسماه الصاحب، فاستمر عليه هذا اللقب واشتهر به»^(٢).

وقد كان الصاحب معجباً بفنّه تياهاً به واستغلّ فيه هذا الجانب خصمه أبو حيان التوحيدى فتلبه أقبح تلب^(٣)، ومن ثلّبه له ما يقصّه من أن رجلاً من أهل الشام «ورد إليه، فكان فيما استخبره عنه: رسائل من تُقرأ عندكم؟ فقال: رسائل ابن عبد كان، قال: ومن؟ قال: رسائل الصابي. وغزوه أحد جلسائه ليقول رسائل الصاحب فلم يفطن الرجل، ورآه الصاحب، فقال: تغمز حماراً لا يحسّ»^(٤). ويقول التوحيدى أيضاً: إنه كان في مجلسه شخص يسمى أبا طالب العلوى «وكان إذا سمع منه كلاماً يسجع فيه، وخبراً ينمقه؛ ويرويه، يبلق عينيه، وينشر منخريه، ويُرِي أنه غشى عليه حتى يرش على وجهه ماء الورد، فإذا أفاق قيل ما أصابك، ما عراك، ما الذي نالك وتغشاك؟ فيقول: ما زال كلام مولاي يروقني ويونقني حتى فارقتي لُبِّي وزايلني عقلي وتراخت مفاصلي وتخاذلت عُرى قلبي وذاهل ذهني وحيل بيبي وبين رشدي، فيهلل وجه ابن عباد عند ذلك وينتفش»^(٥). ويظهر أنه كان يسجع في حديثه وكلامه، ويقص الرواة طرفاً له في ذلك كثيرة^(٦). يقول أبو حيان: «وكان كلفه بالسجع في الكلام والقول، عند الجدل والمزلة، يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد، قلت لابن المسيبي: أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع؟ قال: يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة تنحل بموقعها عروة

(١) Nicholson, lit. Hist. of Arabs, p. 267. (٤) معجم الأدباء ٢٥٨/٦.

(٢) وفيات الأعيان ٧٥/١. (٥) معجم الأدباء ٢٣٧/٦.

(٣) معجم الأدباء ١٧٦/٦. (٦) نفس المصدر ٢١٣/٦.

الملك ويضطرب بها حبل الدولة، ويحتاج من أجلها إلى غُرْمٍ ثقيل وكلفة صعبة وتجشم أمورٍ وركوب أهوالٍ لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخلياها ، بل يأتي بها ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها»^(١) . وكانوا يزعمون أن سجمة اضطرتته إلى عزل قاضي مدينة قُم : فإنه قال يوماً : أيها القاضي بقم ثم حاول أن يكمل السجع فأعنته ذلك فقال : قد عزلناك ، فقم . ويبدو أن إغرامه بالسجع على هذا النحو كان قديماً فيه ، فقد روى الرواة عن ابن العميد أنه قال : « خرج ابن عباد من عندنا من الرى متوجهاً إلى أصفهان وطريقه رامين . . فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا لشيء إلا ليكتب إلينا : كتابي هذا من الثوبهار ، يوم السبت في نصف النهار»^(٢) .

ولعل أول ما يلاحظ في سجع الصاحب أنه يمتاز بالخفة والعدوبة فهو في لفظه أكثر صفاء وأكثر تنغياً من معاصريه من كتّاب الدواوين ، واستمع إلى هذه الرسالة القصيرة التي كتب بها إلى أحد القضاة وقد وفد عليه في الرى^(٣) :
«تحدثت الركابُ بيسيرٍ (أروى) إلى بلدٍ حططت به خيامي
فكدت أطيّر من شوقٍ إليها بقادمةٍ كقادمة الحمام

أفحقُّ ما قيل من أمر القادم ؟ أم ظنُّ كأمانى الخالم ؟ لا والله ! بل هودرك العيان ، وإنه ونيل المنى سيان ، فرحباً أيها القاضي براحتك ورحلتك ، بل أهلاً بك وبكافة أهلك ، وبأسرعة ما فاح نسيم مسراك ، ووجدنا ريح يوسف من ريبك ، فحُتَّ المطى تزل غلَّتِي برؤياك ، وتزح علتى بلقياك ، ونُصَّ على يوم الوصول نجعله عيداً مشرفاً ، ونتخذُه موسمًا ومعرفاً ، وردَّ الغلام ، أسرع من رجع الكلام . فقد أمرته أن يطير على جناح نسر ، وأن يترك الصبا في عقال وأسر :

سقى الله داراتٍ مرتت بأرضها فأدنتك نحوى يا زيادُ بن عامر
أصائلُ قربٍ أرتجى أن أناها بلقياك قد زحزحن حراً الهواجره

(٣) البيتية ٢٢٨/٣ .

(١) معجم الأدباء ٢٠٧/٦ .

(٢) معجم الأدباء ٢٢٠/٦ .

أرأيت إلى هذه الرسالة القصيرة وما فيها من عذوبة اللفظ وجمال النغم؟ إن صاحب حقاً أستاذ ماهر من أساتذة فن التصنيع في القرن الرابع ، وإنه ليتخذ في هذا الفن جميع المفاتيح الموسيقية التي عثر عليها ابن العميد ، فهو من جهة يعنى بقصر سجعاته ، فإن طالت عادل بين ألفاظها معادلات تخرج بها من شذوذ الطول إلى ما يشبه القصر ، ثم هو من جهة أخرى يعنى بألوان البديع يخلّي بها جيد أساليبه ، وقد كان يعنى عناية خاصة بلونى التصوير والجناس ، ولعل ميله إلى الجناس هو الذى جعله يكثر في رقع رسائله من الجناس الناقص . أما ميله إلى التصوير ، فقد جعله يبرع في أوصاف الطبيعة حتى لتتحول جوانب من رسائله إلى ما يشبه الشعر المنظوم كقوله في رسالة له : « كتابي هذا وقد أرخى الليل سدوله ، وسحب الظلام ذيوله »^(١) . وقوله في أخرى يصف مجلس أنس : « قد قابلتني شقائق كالزئوج تجارحت فسالت دماؤها ، وضعفت فبق ذماؤها ، وسامتتني أشجار كأن الحور أعارتها أثوابها ، وكستها أبرادها ، وحضرتني نارنجات ككرات من سفن ذُهبت ، أو تُدِيّ أبكار خلقت »^(٢) . وهذا جانب واضح في تصنيعه ، وقد استطاع به أن يطرف قراءه وسامعيه بضرب من الشعر المنشور الذي تمتلئ سجعاته بالرشاقة والخفة . وقد كان بهذا التصنيع وما يندمج فيه من وشى السجع والترصيع يأخذ مكانته في عصره ، وهي مكانة جعلت أصحاب الإمارات الفارسية يحسدون أصحاب الرىّ والجبل من البويهيين عليه ، ويتمنون أن لو صار إليهم . روى الثعالبي أن نوح ابن منصور صاحب خراسان الساماني أرسل إليه رقعة يريد فيها على الانحياز إلى حضرته ، ليسلّي إليه مقاليد مملكته ، ويعتمد لوزارته ، فاعتذر له بأنه لا يستطيع الانتقال إليه لكثرة حاشيته وأثقاله ، وما لديه من كتب تحتاج في نقلها إلى أربعمائة بعير^(٣) . وقد قالوا إنه لما توفي لقي من الإعظام والإكبار

(١) البيتة ٢٢٧/٣ .

(٢) البيتة ٢٢٣/٣ . وخلقنت : من الخلق . ٢٥٩/٦ .

وهو ضرب من الطيب .

ما لم يلقه أحد من وزراء عصره ، فقد سار فخر الدولة في جنازته ، وقام الناس بأجمعهم فقبلوا الأرض بين يديه وخرقوا ثيابهم ولطموا وجوههم ، وبلغوا في البكاء والنحيب عليه جهدهم^(١) ، وقد رثاه الشعراء — على نحو ما يروى العتبي — رثاء حاراً^(٢) . والحق أن الصاحب بن عباد كان أحد أساتذة البلاغة في عصره ، وبلغ بمذهب التصنيع مبلغاً عظيماً من الزخرف والتنميق وما يتصل بذلك من الزرکشة والتطريز .

٧

تصنيع أبي إسحاق الصابى

هو إبراهيم بن هلال الحراني الصابى الذى اشتهر بالبيان والبلاغة لهذا العصر . ولد سنة ٣١٣ هـ ولاء الوزير المهلبى ديوان الرسائل ببغداد عام ٣٤٩ هـ^(٣) ، فخدم بذلك الخلفاء كما خدم الأمراء من بنى بويه الذين استولوا على بغداد منذ عام ٣٣٤ هـ ، ويُسحكى أن مولاه عز الدولة البويهى عرض عليه الوزارة إن أسلم فامتنع^(٤) . ويقول الرواة : إنه كان حسن العشرة للمسلمين حتى قالوا إنه كان يصوم شهر رمضان مساعدة وموافقة لهم ، وقالوا إنه كان يحفظ القرآن حفظاً يدور على لسانه ، وبرهان ذلك واضح فى رسائله^(٥) . وقد استمر على ديوان الرسائل حتى عام ٣٦٧ هـ إذ « ورد عضد الدولة إلى بغداد وكان نغم عليه أشياء من مكاتباته عن الخليفة وعز الدولة فحبسه ، فسئل فيه ، وعُرِّفَ بفضله ، وقيل له : مثل مولانا لا ينقم على مثله ما كان منه ، فإنه كان فى خدمة قوم لا يمكنه إلا المبالغة فى نصحهم ، ولو أمره مولانا بمثل ذلك — إذا استخدمه — فى أبيه ما أمكنه المخالفة ، فقال عضد

(١) معجم الأدباء ٦/٢٥٩ .

(٢) انظر اليمى للعتبي مع شرح المنبى ١/٢٠٢ . (٥) اليتيمة ٢/٢١٩ .

(٣) معجم الأدباء ٢/٦٢ .

(٤) اليتيمة ٢/٢١٩ ومعجم الأدباء ٢/٢١٧ .

الدولة : قد سوَّغته نفسه ، فإن عمل كتاباً في ماثرنا وتاريخنا أطلقته ، فشرع في محبسه في كتاب « التاجي في أخبار بني بويه » . وقيل إن بعض أصدقائه دخل عليه الحبس وهو في تبييض وتسويد في هذا الكتاب فسأله عما يعمل ، فقال : أباطيلُ أئمَّها ، وأكاذيب ألقَّها ، فخرج الرجل وأنبى ذلك إلى عضد الدولة ، فأمر بإلقائه تحت أرجل الفِيلة ، فأكبَّ أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ونصر بن هارون على الأرض يقبلانها ويشفعان إليه في أمره ، حتى أمر باستحيائه ، وأخذ أمواله واستصفائه ، وتخليد السجن بدمائه ، فبقي في السجن بضع سنين إلى أن تخلص منه « (١) عام ٣٧١ هـ (٢) ، وتوفي عضد الدولة سنة ٣٧٢ فعاد إلى العمل في الدواوين حتى توفي عام ٣٨٤ .

وقد اتصل الصابي في مطلع حياته بالثقافة الفلسفية ، فهم يرون أنه بدأ أمره بدراسة الطب ثم انصرف عنه إلى الأدب والكتابة (٣) ، ويقول القفطي : إنه كان عالماً بالهندسة والهيئة والرياضيات (٤) ، وهو إلى ذلك كان مثقفاً ثقافة واسعة باللغة والشعر قديمه وحديثه . واستطاع أن يحقق لنفسه قدرة بيانية جعلته يرتفع على أقرانه من المسلمين إلى رئاسة ديوان الرسائل ، ولعل مما يدل على قدرته في هذا الجانب أننا نرى كبار الأدباء في عصره يعظمونه ويحلِّونه . يقول ياقوت : « كان بينه وبين الصاحب أبي القاسم إسماعيل بن عباد مراسلات ومواصلات ومتاحفات ، وكذلك بينه وبين الرضى أبي الحسن محمد بن الحسين الموسوي مودة ومكاتبات ، مع اختلاف الملل ، وتباين النحل ، وإنما كان ينظمهم سلك الأدب مع تبدد الدين والنسب » (٥) . ويقول صاحب اليتيمة : إن شعراء العراق مدحوه في جملة الرؤساء (٦) . وهم يروون عن الصاحب أنه كان يقول : « ما بقي من أوطاري وأغراضى إلا أن أملك العراق وأتصدر ببغداد وأستكتب أبا إسحق الصابي ، ويكتب عني ، وأغير عليه » (٧) . وكل ذلك

- | | |
|--------------------------|--------------------------|
| (١) معجم الأدباء ٢١/٢ . | (٢) نفس المصدر ٣٥/٢ . |
| (٣) نفس المصدر ٥٥/٢ . | (٤) معجم الأدباء ٢٣/٢ . |
| (٥) نفس المصدر ٥٥/٢ . | (٦) اليتيمة ٢١٨/٢ . |
| (٦) نفس المصدر ٥٥/٢ . | (٧) معجم الأدباء ٣٠٦/٦ . |
| (٧) أخبار الحكماء ص ٥٤ . | |

لما كان من براعته ومهارته في البيان والبلاغة ، وقد كان يعرف ذلك من نفسه وفنه ، فعبّر عنه أجمل تعبير إذ يقول^(١) :

وقد علم السلطان أني أمينهُ وكتبه الكافي السديدُ الموقُّ
فيمنأى يمناهُ ولفظي لفظهُ وعينى له عينٌ بها الدهرَ يروقُ
ولي فقرٌ تضحى الملوكة فقيرةٌ إليها لدى أحداها حين تطرُقُ

والحق أن الصابي كان علماً من أعلام البلاغة في عصره ، ومن يرجع إلى رسائله يجده يعنى عناية شديدة بانتخاب ألفاظه وصقل عباراته وتنقيح سجعاته ، وكان ما يزال في تسويد وتبيض وتنميق حتى تخرج الرسالة مرصعة بكل ما يمكن من حلى ووشى . ولم يكن يأتي بحلى ووشى جديدين ، بل كان يخضع في ذلك لما اصطلاح عليه أصحاب مذهب التصنيع من السجع والتصوير والتجنيس وألوان البديع وإن كان لم يفرق في استخدام هذه الألوان إغراق صاحب ، ولا إغراق ابن العميد ، إذ كان همه الأول التسجيع والعناية به حتى يحصل من ذلك على طرف بديعة ، وانظر إليه يقول من رسالة كتبها عن معز الدولة بعد ظفره ببعض أعدائه^(٢) .

« وكان الغامط لإنعامنا ، الجاحد لإحساننا ، المتردّي من ذروة طاعتنا ، الهاوى في هوة معصيتنا ، الخالع ريبقة ذمتنا ، النازع جنة^(٣) مشايعتنا ... ونحن نحمل أمره على ظاهره ، ونظن غائبه مثل حاضره ، وباطنه مثل عائلته ، حتى جذبنا بضبعه^(٤) من المسقط المنحط ؛ إلى المرفع المشتط ، وانتهينا في الإنافة^(٥) بقدره ؛ والإشارة بذكره ، والتفخيم لأمره ، والتقديم لقومه ، إلى الغاية التي لا تسمح بها نفسُ باذل ، ولا تسمو إليها همة أمل ، فلما عز بعد الذلة ، وكثر بعد القلة ، وبعُد صيته بعد الحمول ، وطلع سعده بعد الأفول ، وجمت

(١) رسائل الصابي (طبع بمبدأ بلبنان) ٨/١ . (٤) جذب بضمه : نمشه ونوه به .

(٢) رسائل الصابي ٣٣/١ . (٥) الإنافة : الارتفاع .

(٣) الجنة : ما استرت به ، والريقة : العروة .

عنده الأموال ، ووطئت عقبه الرجال^(١) ، وتضمرت بحسده جوانح الأكفاء ،
وتقطعت بمنافسته أنفاس النظراء ، نزت به بطنته^(٢) ، وأدركته شقوته ،
وزنغ له شيطانه ، وامتدت في الغي أشطانه^(٣) ، فنصب أشراكه وجبائله ، وأعمل
مكايده ومخاتله .

وأول ما نلاحظ على هذه القطعة أن الصابي يعني بتقصير سجعه ، فإن
هو أطاله نغم العبارتين تنغياً يجعلك تظن أنهما قصيرتان ، فالألفاظ تتعادل
وتتوازن على نحو ما مر بنا عند أستاذ المذهب ابن العميد ، وملاحظة ثانية
هي أنه يعني بالتصوير كما يعني قليلاً بالجناس . وهذه هي صورة كتابة
الصابي ، فهو يشغف بحلية السجع ؛ وهو يوفر لها ضرباً مختلفة من النغم ،
وإن هذا التوفير ليتمادى به فإذا هو يعني بالمقابلة الدقيقة بين أول العبارتين
حتى تتشابه السجعتان في أطرافهما : في أولهما وآخرهما ، وهو لا يعمم ذلك
في رسائله ولكنه يمنح إليه كثيراً على نحو ما نرى في نفس هذه القطعة ، وكل
ذلك ليستم ما يريد من صوت وموسيقى ، واستمع إليه يكتب إلى عضد
الدولة يهنئه بسنة جديدة على هذه الشاكلة^(٤) :

« أسأل الله تعالى مبتهلاً لديه ، ماداً يدي إليه ، أن يحيل على مولانا
هذه السنة وما يتلوها من أخواتها بالصالحات الباقيات ، وبالزائدات الغامرات ،
ليكون كل دهر يستقبله ، وأمد يستأنفه ، موفياً على المتقدم له ، قاصراً عن
التأخر عنه ، ويوفيه من العمر أطوله وأبعده ؛ ومن العيش أعذبه وأرغده ،
عزيزاً منصوراً ، محمياً موفوراً ، باسطاً يده فلا يقبضها إلا على نواصي أعداء
وحساد ، سامياً طرفه فلا يفضه إلا على لذة غمض ورقاد ، مستريحة ركابه فلا
يُعملها إلا لاستضافة عز ومُلك ، فائزة قِداحه فلا يُجِيلها إلا لحيازة مال ومِلك ،
حتى ينال أقصى ما تتوجه إليه أمنيته جامعاً ، وتسمو إليه همته طامحاً .

(١) وطئت عقبه الرجال : كثرت أتباعه .
(٢) بطنته : حياله .
(٣) أشطانه : حياله .
(٤) البيتة ٢/٢٢٢ .

وأنت تراه يعنى عناية شديدة بهذا الجانب الموسيقى من تصنيعه ، فما يزال يقابل ويعادل ويدقق فى مقابلاته ومعادلاته حتى تخرج عباراته متساوية فى أصواتها تمام المساواة ، وكأنه لا يؤلف نثراً ، وإنما يؤلف شعراً . والواقع أن ابن العميد وتلاميذه من أمثال الصابى وابن عباد رفعوا الحواجز التى كانت تفصل بين أسلوب الشعر وأسلوب النثر ، أو قل على الأقل لإنهم رفعوا كثيراً من هذه الحواجز ، فقد أحالوا نثرهم إلى موسيقى خالصة ، فكله ألحان وأنغام ، وما الفارق الذى يفرق بين مثل هذا السجع والشعر ؟ إنه يعتمد مثله على الموسيقى كما يعتمد مثله على البديع ، وما يزال الكاتب به حتى يخرج زخرفاً خالصاً ، فكله حلٍ وتنميق وتصنيع ، وهو من أجل ذلك لا يشبه النثر الذى كنا نألفه قبل ذلك عند كتاب الدواوين فى القرنين الثانى والثالث ، وإنه يشبه الشعر ، ففيه جميع شياته من موسيقى وبديع ، ولكنه مع ذلك نثر لأنه لا يجرى فى موسيقاه على أوزان الخليل ، ومن ثم كنا لا نستطيع أن نسميه شعراً ، ونحن أيضاً لا نستطيع أن نسميه نثراً خالصاً ، هو فى الواقع شىء بين الشعر والنثر ، ولذلك كان النقاد يسمونه شعراً منشوراً ، وتفنن ابن العميد وتلاميذه بصور مختلفة فى إنتاج هذا الضرب من الشعر المنشور ، وذهبوا يحققون له كل ما يمكن من زخرف وتصنيع . ومهما يكن فإن الصابى كان عالماً من أعلام البيان فى عصره ، وقد أقر له معاصروه ومن جاءوا بعدهم بذلك ، يقول الثعالبي : « إنه أوجد العراق فى البلاغة ومن به تُشتمى الخناصر فى الكتابة ، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية فى البراعة والصناعة »^(١) . ويقول ياقوت : إنه « أوجد الدنيا فى إنشاء الرسائل »^(٢) . ويقول ابن الأثير : « كيف أضع من الصابى وعلم الكتابة قد رفعه ، وهو إمام هذا الفن والواحد فيه »^(٣) . ولما توفى رثاه الشريف الرضى بقصيدة طنانة مطلعها^(٤) :

أرأيت من حملوا على الأعوادِ أرأيت كيف خبأ ضياءُ النادى

(٣) المثل السائر لابن الأثير ص ١٤٨ .

(٤) اليتيمة ٢٨١/٢ .

(١) اليتيمة ٢١٨/٢ .

(٢) معجم الأدباء، ٢٠/٢ .

وما من ريب في أن هذا كله يدل على ما كان للصباي من منزلة رفيعة بين معاصريه ومن جاءوا على إثرهم إذ كان أستاذاً ماهراً في فن التصنيع لعصره ، وكان وما يزال يتفنن في رسائله حتى يخرجها في صورة بديعة من الزخرف والتنميق .

٨

التصنيع عام بين كتاب الدواوين

إذا تركنا الصباي والصاحب إلى من عاصروهما من كتّاب الدواوين وجدناهم جميعاً يذهبون هذا المذهب من التصنيع للسجع والبديع ، ومن ينظر في كتاب اليتيمة للثعالبي وما عرض فيه من كتّاب الدواوين يعرف أنهم كانوا جميعاً يلتزمون هذا المذهب في صناعة نثرهم ، إذ كان بدءاً عاماً بينهم ، وكان كل منهم يحاول أن يكون له شأن أي شأن في هذا البدع الجديد ، ويتضح من اليتيمة أن أشهر الكتّاب الذين عاشوا في هذا العصر وكانوا امتداداً لهذا المذهب هم : عبد العزيز بن يوسف ، وأبو العباس الضبي ، وعلي بن محمد الإسكافي ، وأبو الفتح البُستيّ ، إذ كانوا جميعاً يعنون برسائلهم عناية شديدة .

أما عبد العزيز بن يوسف فقد تقلد ديوان الرسائل لعضد الدولة ، وتقلد الوزارة للبويهيين عدة مرات ، وفيه يقول صاحب اليتيمة : « أحد صدور المشرق ، وفرسان المنطق ، وأفراد الكرم الكبار ، والآثار والأخبار ، وأعيان الممدوحين المقدمين في الآداب والكتابة والبراعة والكفاية ، وجميع أدوات الرياسة »^(١) . ساق الثعالبي جملة من نثره وهي جميعها موشحة بألوان التصنيع وأصباغه كقوله يصف رسالة كتبها إليه أبو إسحاق الصباي : « علمتُ كيف تنتظم فرق البلاغة ، وتتلاقى طرق الخطابة ، وتترامى أشخاص البيان ، وتمايل أعطاف الحسن والإحسان ، وقرأتُ لفظاً جليلاً ، حوى معنى خفياً ، وفصولاً

(١) اليتيمة ٢/٢٨٧ .

متباينة ، كساها الائتلاف صور المشاكلة ، ومنحها الامتزاج صيغة المضارعة :
ولحمة الموافقة ، فصارت لدلالة الأول منها على الثاني وتعلق العَجْزُ بالهادى فيها
أولاد أرحام مبرورة ، وذوات قُرْبَى موصولة ، تتعاطف عيونها ، وتتناصف
أبكارها وعُونها»^(١) .

وأما أبو العباس الضَّبِّيُّ فهو خليفة الصاحب بن عباد وتلميذه ، وفيه
يقول الثعالبي : « هو جذوة من نار الصاحب أبي القاسم ، ونهر من بحره ،
وخليفته النائب متنابه في حياته ، القائم مقامه بعد وفاته ، وكان الصاحب
استصحبه منذ الصبا ، واجتمع فيه الرأى والهوى ، فاصطنعه لنفسه ، وأدبه
بآدابه ، وقدّمه بفضل الاختصاص على سائر صنائعه وندماته ، وخرج منه
صدراً يملأ الصدور كمالاً ، ويجرى في طريقه ترسماً وترسلاً ، وفي ذُرَى المعالي
تَوَقُّلاً»^(٢) . . . وقد كانت بلاغة العصر بعد الصاحب والصابي بقيت متماسكة
بأبي العباس ، فأشرفت على التهافت بموته ، وكادت تشيب بعده لِمَمِّ الأَقلام ،
وتجف غُدُرُ محاسن الكلام»^(٣) . وقد روى الثعالبي له غُرّاً من رسائله كقوله
في صدر أحد كتبه : « قد أتاني كتاب شيخ الدولتين فكان في الحسن روضة
حَزْن ، بل جنة عَدْن في شرح النفس ، وبسط الأنس ، بل بَرْدَ الأَكباد
والقاوب ، وقميص يوسف في أجفان يعقوب»^(٤) .

وأما على بن محمد الإسكافي فكان كاتب الدولة السامانية ووزيرها ، وفيه
يقول الثعالبي : « هو لسان خراسان وغرَّتْها ، وعينها وواحدتها ، وأوحدتها في
الكتابة والبلاغة ، ومن لم تُخرج مثله في البراعة والصناعة ، وكان تأدِّب
بنيسابور عند مؤدب بها ، يعرف بالحسن بن المهرجان ، من أعرف المؤدبين
بأسرار التأديب والتدريس ، وأعلمهم وأدراهم بطرق التدريج في التخريج :
ثم حرَّرَ مُدَيِّدة في بعض الدواوين ، فخرج منقطع القرين»^(٥) . ثم يقول

(١) اليتيمة ٢/٢٩٥ . وعونها : جمع عوان

وهي الشيب .

(٢) التوقُّل : الصعود في الجبل .

(٣) اليتيمة ٣/٢٦١ .

(٤) اليتيمة ٣/٢٦٢ .

(٥) اليتيمة ٤/٩٠ .

الثعالبي : « إنه كان أكتب الناس في السلطانيات ، فإذا تعاطى الإخوانيات كان قاصر السعى ، قصير الباع » (١) . وقد لاحظ ابن الأثير نفس هذه الملاحظة على الصابي (٢) . ويروى الثعالبي طائفة من نثر الإسكافي ، وهي كلها تنهج نهج التصنيع ، وما يُطَوَّى فيه من سجع وبديع ، ويختم الحديث عنه بقوله : « إنه لما انتقل إلى جوار ربه غدت لفراقه الكتابة شعناء ، والبلاغة غبراء ، وأكبر فضلاء الحضرة رزيته ، وأكثروا مرثيته ، وفيه يقول بعض الشعراء :

ألم تر ديوان الرسائل عطلتُ لفقسدانه أقلامهُ ودفاترهُ
كثفِر مضي حاميه ليس يسره سواه وكالكسر الذي عزَّ جابره
ليَبك عليه خطهُ وبيانهُ فذامات واشيه وذامات ساحره» (٣)

وأما أبو الفتح البُستى فكان - في أول أمره - كاتباً لباي توز أمير مدينة بُست ، وهي من مدن أفغانستان ، فلما استولى عليها الأمير سبكتكين ألحقه بخدمته « وصار من بعد ينظم بأقلامه منشور الآثار عن حسامه ، وينسج بعباراته وشائع فترحه ومقاماته ، وهلم جرّاً ، إلى زمان السلطان يمين الدولة وأمين الملة (محمود بن سبكتكين) فقد كتب له عدة فتوح إلى أن زحزحه القضاء عن خدمته ، ونبذه إلى ديار الترك من غير قصده وإرادته» (٤) . واشتهر البستى بكثرة الجناس في كلامه ، يقول العتبي : « هو صاحب التجنيس » (٥) ، ويقول الثعالبي : « هو صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأسيس ، البديع التأسيس ، وكان يسميه المتشابه ، ويأتي فيه بكل طريقة لطيفة » (٦) . ولم يَرَوِ الثعالبي شيئاً من رسائله ، وإنما اكتفى ببعض ما في كتبه من أمثال وحكمة كقوله : « عادات السادات ، سادات العادات . من سعادة جدك ،

(١) اليتيمة ٩٢/٤ .

(٢) المثل السائر ص ١٤٨ .

(٣) اليتيمة ٩٤/٤ .

(٤) انظر تاريخ اليعقوبي للعتبي مع شرح

المنبى ٧١/١ .

(٥) نفس المصدر ٦٧/١ .

(٦) اليتيمة ٢٨٤/٤ .

وقوتك عند حدّك . الدعة رائد الضعة . إذا بقي ما قاتك ، فلا تأس على ما فاتك . الخلاف غلاف الشر ، عسى تحظى في غدك برغدك » . وهي كلها أمثال مسجعة نمت بوشى التجنيس ، وكأنما كان يعمد البسّى إلى هذا الوشى عمداً كي يتفوق على معاصريه في استخراج كل ما يمكن من بدائعه وطرائفه . وأكبر الظن أننا لا نغلو بعد ذلك إذا قلنا إن الكتابة الديوانية قد تحولت على أيدي هؤلاء الكتاب وأضرابهم إلى تحف فنية خالصة .